مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية ISSN : 2353-0464
المجلد1 ، العدد2، (جوان2013) EISSN : 2600-6421

السيميائية من المنظور الجاحظي: نظرة في كتابي " البيان والتبيين" و " الحيوان"

د/ فتيحة لعلاوي
–جامعة الجزائر2–

من السيميائيات الحديثة بكل مدارسها واتجاهاتها، بداية من فرديناند دي سوسيرFerdinand de Saussureوشارل سندرس بيرس Charles Sanders Peirceوغيرهم من الأعلام الغربيين، نطل بدراستنا الراهنة على الدراسات الجادة المنهجية المتمثلة في الموروث الجاحظي (ت255هـ/ 869م) السيميائي العلمي، التي تعد بحق بحثا إجرائيا سيميائيا أصيلا، وهذا من خلال تأكيد الجاحظ في أكثر من مناسبة على مدى ثراء مصطلح " البيان " بالمعاني؛ معاني تحيل لا على اللغة الطبيعية العادية أو الفنية فقط، بل تتعداهما لتحيل على كل الأشياء الدالة سواء تعلق الأمر بالسامع أو المتلقي. فالبيان عنده من حيث التحديد الإجرائي للمصطلح، هو عبارة على حد قوله:

" اسمٌ جامع لكل كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير، حتى يُفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أيِّ جنس كان الدليل، لأنّ مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأيِّ شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع "[1].

ولما كان الهدف لدى الجاحظ هو" إنما الفهم والإفهام "[2]، وهو يحتاج إلى علامات تنقله " فبأي شيء بلغتَ وأوضحت عن المعنى " [3]، برزت عنده العلامات التي تنقل المعنى. وهي تشمل علامات لفظية وغير لفظية، وبعبارة أخرى " الدليل بكل أنواعه، سواء المنطوق أو المكتوب أو المشَاهَد، ويشير الأستاذ محمد الصغير بناني في سياق حديثه عن الدليل اللّساني لدى الجاحظ موضّحا ماهيته بقوله: " إنّ الجاحظ المتكلم لا يقبل أن يحصر بلاغته في الدليل اللّساني، فهو يتناولها من خلال جميع دلائلها اللسانية وغير اللسانية وهي أقرب إلى علم السيمياءsémiologie* منها إلى اللسانيات"[4].ويستدرك الجاحظ محددا العلامات والإشارات التي تدل على المعاني، حيث نجد " جميع أصناف الدلالان على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: اولها اللّفظ ثم الإشارة، ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمى نِصْبَةً "[5].

ومن الآراء القائلة بوجود تفكير سيميائي في ماهية العلامة عند الجاحظ، ما نلمسه في دراسة إدريس بلمليح الموسومة " الرؤية البيانية عند الجاحظ من خلال " البيان والتبيين " التي خصص فيها فصلا كاملا للحديث عن أصناف الدلالات على المعاني التي عدّها بصفة صريحة، سيميائيات جاحظية[6]، كما حاول هذا الباحث المغربي مقارنة تلك الأصناف التبليغية وما دعا إليه فرديناند دي سوسيرFerdinand de saussure، حيث يقول في هذه المقارنة: " يعتبر الجاحظ العالم نظاما من الإشارات، ويعتبر سوسور بعض مظاهر الحياة الانسانية الشبيهة باللغة ذات نظام إشاري. يعتقد الجاحظ أنّ اللّفظ والخط والعقد والإشارة والنصبة، متشابهة الأصل والجوهر وهذا بالضبط مفهوم دي سوسير de saussureللسيميولوجيا "[7].

وللجاحظ نظريته الخاصة فيما يتعلق بالدليل مهما كانت طبيعته، حيث نجده يربط بين الدليل والطرق التي تمكننا من الاستدلال بهذا الدليل؛ أي معرفة الدلالة الموجودة في مختلف العلامات أو الدلائل، وهي علاقة تلازمية- كما يحددها- الجاحظ بصريح العبارة في قوله: " وجُعل بيانُ الدليل الذي يستدِلُ المستدِلُ من نفسه واقتياده كلَّ من فكَّر فيه إلى معرفة ما استُخْزِنَ من البرهان وحُشِيَ من الدّلالة وأُدِعَ من عجيب الحكمة " [8]، إذا فالدليل هو ردفا للبيان، الذي سبق أن حدّده الجاحظ في خمس وسائل تبليغية بيِّنة التي هي أساس نظامه التواصلي السيميائي الموجود في كل المجتمعات. كما نستطيع استنتاج من خلال القول نفسه، أنّ طبيعة " الدليل " لدى الجاحظ هو بمثابة كيانا يشتمل على ثلاثة أبعاد، وهي: الدليل؛ الظاهر للعيان وهو الجانب المادي للعلامة، والمستَدَل عليه؛ وهو المعنى الباطن أو الخفيّ، أي الدلالة، والمستدِل وهو العقل عندما نستدل به لمعرفة ماهية الدلالة.

وهذه النظرية للعلامة نفسها نجدها عند شارل سندرس بيرس Ch.S.Peirce، من خلال نظامه السيميائي الذي هو عبارة عن مثلث، تشكل الإشارة فيه الضلع الأوّل، وهو الذي له صلة حقيقية بالموضوع الذي يشكل الضلع الثاني المُحَدِد للمعنى، وهذا الضلع الثالث- أي المعنى- هو إشارة كذلك تعود على موضوعتها الذي أنتج المعنى.وتحديدا لعلم العلامات، نجد الجاحظ يفصّل الكلام في الإشارات التي تنقل المعاني المختلفة، ويشرح كيفيتها، وتطوّرها تماشيا مع المتطلبات الحضارية. فالإشارة تكون باليد وبالرأس وبالعين والحاجب والمنكب، أما إذا تباعد الشخصان فالبثوب وبالسيف. و تختلف دلالات إشارة السيف؛ فقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون زاجرا أو مانعا رادعا، ويكون وعيدا وتحذيرا.

و يحدد الجاحظ المواقف الاجتماعية التي تستدعي التعبير بها، على نحو قوله: " وفي الإشارة بالطَّرْف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أمور يسترها بعض الناس من بعض ويخْفونها من الجليس

وغير الجليس. ولولا الإشارة لم يتاهم الناس معنى خاص الخاص "[9]. كماي حدد الجاحظ العَقْد بالحساب، وهو دون اللفظ والخط، ويفسِّره البغدادي بقوله: " والعَقْد نوع من الحساب يكون بالأصابع اليدين، يقال له حساب اليد. وقد ورد منه في الحديث: وعقد عقد التسعين.." .[10]

أما النَّصْبة فهي الحال الناطقة بغير لفظ، والمشيرة بغير يد[11] [...] ولذلك قال الأول: " سَلِ الأرض فقُلْ: مَنْ شَقَّ أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تُجبْكَ حوارًا، أجابتك اعتبارًا" [12]. و" الاعتبار " في هذا السياق المقصود به " الهيئة " هذا المصطلح البياني الذي أشار إليه الراغب الأصفهاني في مقام الحديث عن ماهية الدلالة التي يقول فيها: " الدلالة ما يُتوصل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ عن المعنى، ودلالات الإشارات والرموز والكتابة، وسواء أكان بقصد من يجعله دلالة، أم لم يكن بقصد، كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حيّ "[13]. من خلال هذا النص نرى أنّ الراغب الأصفهاني أشار إلى " الدليل " بمختلف أنواعه كما فعل ذلك الجاحظ من خلال حصره في خمس أشياء كما سبق ذكره.

ولا يكفيه الجاحظ البحث في الدليل بمختلف أنواعه دون الوقوف عند الدلالة الطبيعية التي تُستَمد وتُستدل من الملامح الخارجية الفيزيولوجية، أو ما يُستدل من آثارها وأعراضها لتحديد مختلف العلامات، فيقول في هذا السياق: " .. شبيه بإخبار الهزال وكسوف اللون عن سوء الحال، ودلالة السمن وحسن النضرة عن حسن الحال "[14]. فمن خلال هذا الكلام نجد هناك ربط نفسي اجتماعي بين العلامة ودلالتها دون التصريح بالمصطلح العلمي، وهذا دليل على أنّ البحث السيميائي عند الجاحظ، يستند إلى أسس معرفية قوامها التجربة والمعاينة والاستنتاج الموضوعي للظاهرة المدروسة.

وبواسطة جملة من الإشارات والعلامات يتمكن الإنسان من الإفصاح في مختلف المواقف عن أغراضه وحاجاته، والجهل بهذه الوسائل التبليغية، يخرج السلوك الاتصالي عن وظيفته المتوخاة، وعلى هذا يبني الجاحظ نظريته بغرض تحقيق القيمة الاتصالية « la valeur communative » التي لا يمكنها أن تنجح وتحقق المنفعة إلا من حيث العلم بجميع هذه الوسائل العلاماتية، بقوله: " ولولا معرفة العباد بمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عزّ وجلّ الحساب في الآخرة، وفي عدم اللفظ وفساد الخط والجهل بالعَقْد فساد جُل النِّعم، وفقدان جمهور المنافع، واختلال كل ما جعله الله عزّ وجلّ لنا قواماً، ومصلحة ونظاماً "[15]. وهي نفس النظرة التي نجدها عند أبو حامد الغزالي، الذي يرى أنّ الأشياء في الوجود لها أربع مراتب، إذ يقول: " إنّ للشيء وجودا في الأعيان، ثم في الأذهان، ثم في الألفاظ، ثم في الكتابة. فالكتابة دالة على اللفظ، واللفظ دال على المعنى الذي في النفس، والذي في النفس هو مثال الموجود في الأعيان "[16]. وهو بهذا المعنى يربط

الدليل اللساني وغير اللساني بالجانب النفسي الاجتماعي، كما ذهب إلى هذا فرديناند دي سوسيرFerdinand de saussure ، وهو نفس الاتجاه الذي سلكه الجاحظ من قبل في توضيح ماهية " الدليل " على اختلاف وجوهه.
وتأسيسا على ما سبق، فالتعبير عن معنى من المعاني لا يكون بالضرورة في كل الأحوال بواسطة الكلام المنطوق أو المكتوب، فقد يكون " واقع التعبير عن المعاني بلغة ليست بالضرورة لغة الكلام، لكنها تتسع لتحيط بجميع وسائل التعبير الممكنة "[17]، أو هي " الكشف عن المعنى الذي يمكن أن يتم تلقيه بدون ألفاظ عبر الإشارة وغيرها "[18]، وهي في جميع الأحوال " طرق الاتصال ووسائل التعبير في المجتمع "[19].

و قد تناول الجاحظ مبادئ العلامات في غير كتاب من كتبه، كالحيوان[20]الذي أجمل فيه ما فصله في البيان.. كما جاء في هذا الكتاب، تمييزه بين التصويت العلاماتي الذي يصدره الانسان من خلال ربطه بالدلالة التي تستوجبه، بقول: " وفهمك لمعاني كلام الناس [...] ينقطع قبل انقطاع فهم الصوت مجردا وأبعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك والمعاون لك ما كان صياحا صرفا وصوتا مصمتا ونداء خالصا ولا يكون ذلك إلا وهو بعيد من المفاهمة وعطل الدلالة، فجُعل اللفظ لأقرب الحاجات والصوت لأنفس من ذلك قليلا والكتاب للتاريخ من الحاجات [...] "[21]. فالجاحظ من خلال كلامه السابق، يشير إلى قضية في غاية الأهمية تتعلق بتقنية التصويت العلاماتي، التي نجدها عند الإنسان كما نجدها لدى الحيوان، إلا أنّ الفرق يكمن في أنّ الأصوات التي يصدرها الإنسان تتميّز بأنها قابلة إلى التقطيع بخلاف التي يصدرها الحيوان. وعندما يقول الجاحظ " الصوت ما كان صياحا " [22]، فهنا إشارة إلى نوعية العلامة التي تحمل شحنات صوتية تعبر عن دلالات متنوّعة؛ كالبكاء بالنسبة إلى الطفل الصغير الذي هو بمثابة علامة يعبر بها عن مختلف حاجاته البيولوجية، أو الضحك الذي يصاحب حالات مختلفة تحيل إلى مختلف العلامات المصاحبة له. وعلى هذا فالإنسان يملك القدرة الكفيلة بإنتاج أنواع من العلامات التي تلبي حاجاته على حد تعبير الجاحظ، وعليه فهو يستطيع " أن ينتج العلامة الصوتية التي يشاركه فيها الحيوان، فقد اهتدى إلى آلات النطق وشغلها التشغيل الكفيل بتوليد الصوت الدال أو العلامة الصوتية كلما لزم الأمر "[23]. وهو نفس المنحى الذي اتخذه الراغب الأصفهاني في ربط نوعية النغمات الصوتية التي يصدرها الإنسان والمقاصد التي يرجوها من وراء ذلك مدللا على أنّ نغمة الصوت تختلف تبعا للمقاصد والأغراض على أساس أنّ " ... اختلاف الألسنة إشارة إلى اختلاف اللغات وإلى اختلاف النغمات، فإنّ لكل إنسان نغمة مخصوصة يميّزها السمع كما أنّ له صورة مخصوصة يميّزها البصر "[24]

وعلى نهج الجاحظ جاءت مباحث ابن قتيبة (ت276هـ/ 889م) في العلامات، فقد أورد في كتاب " العلم والبيان " الوسائل غير اللفظية التي تمكن من تبليغ المقاصد، على نحو: " الاستدلال بالعين والإشارة والنصبة. و من الاستدلال بالعين، معرفة الحب والبغض من خلال حركة العين، حجّته قول الأعرابي: [من البسيط]

إنْ كَاتَمُونَا نَمَتْ عُيُونُهُم والعَيْنُ تُظْهِرُ ما في القَلْبِ أو تَصِفُ[25]

ويؤكد الجاحظ هذه الفكرة من خلال قوله: " ومتى دلَّ الشيء على معنى فقد أَخبر عنه وإنْ كان صامتا وأشار إليه وإنْ كان ساكتا. وهذا القول شائع في جميع اللغات، ومتّفق عليه مع إفراط الاختلافات "[26]. وهذا ربط واضح المعالم بين الشيء وموضوعته كما يعبر عنه بيرسPeirce، ولقد عبّر عنه الجاحظ بأدق لفظه، وبعبارة أخرى؛ فلا وجود لعلامة ما ما لم توجد الموضوع (الشيء). فالعلامة من هذا المنظور تشمل جميع الموجودات الحاصلة في الكون.

وختاما نستطيع أن نقول – في شيء من الاطمئنان – أنّه كان لعلماء العربية إسهام بارز في الدراسات السيميائية (العلاماتية) بصفة خاصة واللسانية عموما، ونخص بالذكر الجاحظ الذي أثرى علم السيمياء بمباحثه، فآراء دي سوسيرF. de Saussureفي السيمياء وتعداد اللغة جزءا منها وربطها بعلم النفس عامة وعلم النفس الاجتماعي خاصة، انعكاس واضح المعالم لآراء الجاحظ الذي جعل أصناف الدلالة خمسة لفظية وغير اللفظية، جاعلا اللغة من عناصر السيمياء، إلى جانب حديثه عن موضوع المقامات (المواقف) وما يوافقها من شكل معيّن لتلك الأصناف المذكورة وربطها بالمقام وهذا له علاقة وطيدة بعلم النفس الاجتماعي من دون تسمية مصطلحية.

هوامش و إحالات

1. - الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين. تحقيق: موفق شهاب الدين، الجزء الأول، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 2009م، ص60.
2. - المرجع السابق، والصفحة نفسها.
3. - نفسه.

- بعض الدارسون يفرقون بين المصطلحين: سيميولوجيا(sémiologie) ويطلقون عليها علم العلامات، والسيميوتيك(semiotic) ويسمونها العلامتية، فيعرفون الأوّل بأنه العلم الذي يبحث في الإشارات والأنظمة الإشارية عامة، ويذهبون إلى أنّ الثاني يبحث في دلائل نظام إشاري معيّن.. فمثلا إذا بحثت الشارات والألبسة في مجتمع معين، فالعلامة (علامتية اجتماعية)، وإذا بحث الحوار في الشعر أو المسرح فالعلامة (علامتية أدبية)، وهكذا.. والمصطلحان سيميولوجيا(sémiologie)والسيميوتيك(semiotic) يغطيان اليوم نظاما واحدا متكاملا. والفرق

مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية ISSN : 2353-0464
المجلد1 ، العدد2، (جوان2013) EISSN : 2600-6421

الوحيد بين المصطلحين أنّ (السيميولوجيا) مفضلة عند الأوروبيين تقديرا لصياغة دي سوسيرDe Saussure لهذه اللفظة، بينما يبدو أنّ الناطقين بالإنجليزية يميلون إلى تفضيل (سيميوتيك) احتراما للعالم الأمريكي بيرس Peirce . ينظر: عدنان بن ذريل " اللغة والدلالة، آراء ونظريات "، ص 50-51 و Pierre Guiraud : Sémiologie, Que sais-je, N° 1421, p6-7.

4. -بناني، محمد الصغير، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال " البيان والتبيين " ، ط1، دار الحداثة للطباعة والنشر، لبنان –بيروت، 1986م، ص11-12.
5. - الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين. تحقيق: موفق شهاب الدين، الجزء الأول، ص61.
6. - بلمليح، ادريس، الرؤية البيانية عند الجاحظ، ط1، دار الثقافة، المغرب،1984م،ص111 إلى ص 138.
7. - المرجع السابق، ص48.
8. - الجاحظ، أبو عثمان، الحيوان. تحقيق: عبد السلام هارون، الجزء الأول، ط2، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، 1965م، ص34.
9. - الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين. تحقيق: موفق شهاب الدين، الجزء الأول، ص62.
10. - البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، (د.ت)، ص147.
11. - الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين. تحقيق: موفق شهاب الدين، الجزء الأول، ص64.
12. - المرجع السابق، والصفحة نفسها.
13. - الأصفهاني، الراغب عماد الدين الكاتب، مفردات في غريب القرآن. تحقيق: محمد أحمد خلف الله، مادة (دلّ)، مكتبة الأنجلو مصرية، (د.ت).
14. - الجاحظ، أبو عثمان، الحيوان، الجزء الأول، ص34.
15. - الجاحظ، أبو عثمان، البيان والتبيين، ص64.
16. - الغزالي، أبو حامد، معيار العلم. تحقيق: سليمان دنيا، ط2، دار المعارف بمصر، القاهرة، (د.ت)، ص35-36.
17. - ميشال، عاصي، مفاهيم الجمالية والنقد في أدب الجاحظ، مؤسسة نوفل، بيروت- لبنان، 1981م، ص40.
18. - أنظر: الكوّاز، محمد كريم، أبحاث في بلاغة القرآن الكريم، ط1، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، 2006م، ص36-37.
19. - حلمي، خليل، دراسات في اللسانيات التطبيقية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2000م، ص159.

20. - قال الجاحظ في فصل " البيان ضروري للاجتماع " ..و جعل آلة البيان التي بها يتعارفون معانيهم، والترجمان الذي إليه يرجعون عند اختلافهم، في أربعة أشياء، وفي خصلة خامسة.. هي: اللفظ والخط والإشارة والعقد، والخصلة الخامسة ما أوجد من صحة الدلالة وصدق الشهادة ووضوح البرهان..، الجاحظ، الحيوان، الجزء الأول، ص45.
21. - الجاحظ، الحيوان، الجزء الأول، ص47-48.
22. - صاح، يصيح وصياحا وصُياحا بالضم، وصيْحا و صَيَحانا بالتحريك، و صيَّح: صوَّت بأقصى طاقته، يكون ذلك في الناس وغيرهم، قال: [الطويل] [ش276/2] وصاح غُراب البيْن، وانْشَقَّتْ العَصا كما ناشدَ الكَفِيلُ المُعاهدُ (البيت لأسامة بن حارث الهذلي في شرح أشعار الهذليين ص1297). أنظر: لسان العرب لابن منظور. تحقيق: عامر أحمد حيدر، ط1، المجلد الثاني، فصل الصاد، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، 1426هـ- 2005م، ص299.
23. - نعيم، علوية، نحو الصوت ونحو المعنى، ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1992م، ص8-9.
24. - الأصفهاني، الراغب عماد الدين الكاتب، مفردات غريب القرآن. تحقيق: محمد سيّد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت، (د.ت)، ص480.
25. - ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، عيون الأخبار، المجلد الأول، الجزء الثاني، طبعة مصوّرة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1343هـ-1925م، ص181.
26. - الجاحظ، البيان والتبيين، ص64.